العرب في مواجهة البدايات التي سبقت الاحتلال البريطاني لفلسطين

فيصل حوراني

تحفظ كتب التاريخ التي تهتم بقضية فلسطين رسالة كتبها احد اليهود في العام ١٧٩٨، يقول فيها: «ان البلاد التي نقترح احتلالها سوف تضم (وذلك يخضع للترتيبات التي تراها فرنسا مناسبة) مصر السفلى، بالاضافة الى منطقة تمتد حدودها على خط يسير من عكا إلى البحر الميت، ومن الطرف الجنوبي للبحر الميت الى البحر الاحمر»[١]. ثم يوضح كاتب الرسالة «ان هذا الموقع المتفوق على ما عداه والمتميز عن سائر المواقع في العالم سوف يجعل منا، حين نمخر عباب البحر الاحمر، أسياد تجارة الهند والجزيرة العربية أو جنوب افريقيا وشرقها والحبشة... وان قرب حلب ودمشق سوف يسهل تجارتنا مع بلاد فارس، وعن طريق البحر الابيض المتوسط، نستطيع اقامة الاتصالات مع فرنسا واسبانيا وايطاليا وسائر انحاء القارة الاوروبية»[٢]. وبعد تعداده لهذه الميزات، يخاطب صاحب الرسالة اخوانه اليهود سائلاً: «ألا تتضاءل قيمة التضحيات امام تحقيق هدف كهذا ؟»، ثم يبثهم حلمه: «سوف نعود إلى بلادنا ونعيش في ظل قوانيننا، ثم نشاهد تلك الاماكن المقدسة ايها الاسرائيليون ! ها قد دنت نهاية بؤسكم ومصائبكم، فالفرصة مواتية، فلا تدعوها تفوتكم»[٣].

وليس من العسير الوقوع على دعوات كهذه، او على محاولات أجريت بالفعل، قبل نشأة الحركة الصهيونية، وكان هدفها الاستفادة من حلم اليهود المتدينين بالعودة إلى فلسطين لتوطينهم فيها وتحقيق اغراض سياسية من وراء ذلك.

ولعل اكثر هذه المحاولات أهمية هي تلك التي تمثلت في مسعى حكومة المديرين الفرنسية، في العام ١٧٩٨، لدى حاكم مصر محمد علي باشا، ثم محاولات يهود بريطانيين للاستفادة من التوافق في المصالح بين بريطانيا ومحمد علي باشا، عندما احتل جيش هذا الاخير بلاد الشام. الا ان المحاولة الفرنسية شهدت نهايتها باندحار جيش نابليون أمام عكا، كما شهدت المحاولة الثانية نهايتها عندما تراجعت قوات محمد علي باشا الى مصر[٤]. وكل ما يمكن استخلاصه، الآن، من المحاولات القديمة، هذه، ان اقتران الاطماع الاستعمارية وحاجات التنافس بين الدول الاستعمارية بامكانية الاستفادة من حلم اليهود المتدينين، قديم هو الآخر، بل ملازم لنشأة المسألة اليهودية التي سبقت نشأة الصهيونية، مما يمكن متابعة

شؤون فلسطينية ، العدد ١٦٠ ـ ١٦١، تموز/آب (يوليو/اغسطس) ١٩٨٦